جبرا إبراهيم جبرا

مشروع عظيم في رجل

«الكتابة كالفضيلة، أجزاؤها هي نفسها، وجدوى الكتابة أنك كتبت، لا تتوقع أي شيء آخر، وكونك كتبت فقد أثبتَّ أنك إنسان يعيش على مستويات كثيرة في اللحظة الواحدة».

عندما قال المثقف الموسوعي جبرا إبراهيم جبرا هذه الكلمات كان يلخص نفسه وحياته قبيل غيابه الأبدي عن هذه الدنيا في نهاية شهر ديسمبر/كانون الأول من عام 1994م. ويؤكد ذلك قوله بمناسبة ميلاده السبعين: «إن اليوم الذي لا أكتب فيه هو يوم بائس، وحين أكف عن الكتابة فسأرحب بالموت!».

وعلى ضوء هذا الاعتراف المباشر يمكننا القول إن الكتابة في قاموس جبرا تعني الحياة ذاتها، كما أن الحياة عنده تعني الكتابة عينها ولا توسط بينهما!

نبيل خالد الأغا
كاتب من فلسطين

والحق أن جبرا الذي يعتبر إحدى القامات المديدة في الثقافة العربية أبدع إبداعاً لافتاً في كافة الجبهات الأدبية والثقافية عدا المسرح الذي لم يتعامل معه بالمطلق، فهو روائي وقاص وشاعر وناقد، ورسام، ومترجم.

وخلال امتداد حياته أثرى المكتبة العربية بأربعة وستين كتاباً بين مؤلف ومترجم، وأضحى مرجعاً أدبياً مهماً فرض نفسه على الوسط الثقافي العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وليس من الحق الموضوعي تجاهل الدور الطليعي الذي أداه في التأسيس، وحسبنا - قبيل الإبحار في محيط جبرا الإبداعي - أن نعرض لتفاصيل حياته القاسية التي ابتدأت بميلاده في فلسطين، ووفاته في العراق، وما بين صرخة الميلاد وشهقة الرحيل سنطلع على تقاسيم حياته الصاخبة التي وصفها بـ«النكتة الهائلة» حين قال: «كأنما الحياة - رغم فواجعها - بقيت نكتة هائلة لا تستحق منا بعد البكاء إلا الضحك!».

اليوم الذي لا أكتب فيه يوم بائس وحين أكفُّ عن الكتابة فسأرحب بالموت!

بداية المسيرة

شهدت مدينة بيت لحم الفلسطينية - التي ابتدأ منها التاريخ الميلادي بميلاد السيد المسيح عليه السلام - بزوغ حياة جبرا إبراهيم جبرا مسعود في شهر سبتمبر/ أيلول من عام 1919 إبّان عهد الانتداب البريطاني على فلسطين (1917 - 1948). واسم «جبرا» شحيح التداول في المجتمع الفلسطيني - والعربي بشكل عام - وهو لفظ آرامي الأصل يعني القوة والمَنَعَة، وينتمي جبرا إلى طائفة السريان الأرثوذكس.

وبرغم أن صاحب السيرة والمسيرة لم يدون سيرته الحياتية بصورة جلية ومتصلة في كتاب مستقل كما فعل غيره من الأدباء مثل طه حسين في «الأيام» إلا أنه عمد إلى كتابتها على هيئة فصول مستقلة في كتابين هما: «البئر الأولى» و«شارع الأميرات»، ففي الكتاب الأول «التقط لحظات نوعية في طفولته تكشف البيئة والثقافة والوعي الاجتماعي والتربوي، وترصد براءة اكتشاف الموجودات المحيطة بابن العاشرة بين القدس وبيت لحم، ومع أن الكتاب فصول مستقلة إلا أنه معطى بأسلوب يحرض القارئ على إكمال ما بين الفصل والفصل»[1].

ولم يتحدث جبرا بصورة مباشرة عن نفسه، بل رسم بعض الشخصيات في مقالاته ورواياته تشبه شخصيته إلى حد بعيد، وقد أشار إلى ذلك صراحة بقوله: عندما أخذت أراجع نفسي بشأن هذه الطفولة وجدت أنني عبر أكثر من أربعين سنة من الكتابة استعرت العديد منها في مقالاتي وقصصي، وبخاصة روايتي «البئر الأولى».

تلقى جبرا علومه الأولية في بيت لحم متنقلاً من مدرسة لأخرى داخل المدينة نفسها، وذلك بسبب مسكن عائلته المتنقل أيضاً من حي إلى حي آخر بحثاً عن أجرة مناسبة لدخل الأب الذي عجز في نهاية المطاف عن إعالة أسرته نظراً لعمله بنظام «اليومية» الذي لا يخضع لدخل ثابت، فاضطر أمام ذلك للانتقال إلى مدينة القدس في كنف أخيه الأكبر «يوسف» الذي تولى بدوره الإنفاق على الأسرة.

وأتاح التحاقه بالمدرسة الرشيدية عام 1932، ومن ثم الكلية العربية عام 1935، التعرف على نخبة من أساتذة فلسطين الكبار أمثال: إبراهيم طوقان، وإسحاق موسى الحسيني، وعبدالكريم الكرمي (أبو سلمى)، ومحمد العدناني وغيرهم.

ومن خلال هاتين البوابتين العلميتين تفتحت عيناه على آفاق معرفية واسعة، وأثبت جدارته وتفوقه على كافة أقرانه، ولأنه كان يشعر بتميزه اللافت منذ الطفولة فلم يكن غريباً عليه تماهيه في كثير من الأوقات مع شخصية السيد المسيح عليه السلام ومع العظماء والمبدعين، فجبرا العبقري المتميز هو هو نفسه الذي كان يسير حافي القدمين في طفولته ببيت لحم، وكان يعتقد أن فقره المدقع هو السبيل لدخوله الجنة، لأن السيد المسيح كان معدماً مثله، يسير في الطرقات حافياً، يقول جبرا: «إن الطبيعة قاسية ولا نقدر جميعاً على تحمل قسوتها كما فعل السيد المسيح، ولكن علينا رغم كل شيء أن نقتدي به، وطوبى للفقراء لأنهم سيرثون جنة الله (البئر الأولى)[2]».

وبرغم ارتوائه المبكر من بئر الحرمان والعوز، إلا أنه قرر منذ تفجر وعيه أن يكون طالب علم لا طالب مال، فنذر حياته لكسب العلم ولم يأبه لجلب المال، وقد تجلى منهجه هذا بوضوح كامل من خلال ردة فعله، عندما قرأ حكمة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اثنان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال»، فعلق على ذلك قائلاً: «سألت نفسي يومئذ أي الاثنين معاً أنا؟ فقررت في الحال أنني طالب علم، فالمال بالنسبة لي شيء مجهول لا يعنيني، أما العلم فها هو بين يدي في الكتب بكل روعته»[3].

وقد اكتست نفسه الظماءة للعلم بوهج السعادة والحبور جراء فوزه بمنحة دراسية مجانية من الكنيسة للالتحاق بجامعة كامبريدج العريقة، وبعد دراسته فيها، حصل على شهادة الماجستير في الأدب الإنكليزي، وفي النقد الأدبي تحديداً، وبعد عودته إلى فلسطين عين أستاذاً في الكلية الرشيدية بالقدس.

بغداد.. منصة الانطلاق

تزامنت نكبة فلسطين الأولى في عام 1948 مع سفر جبرا إلى بغداد للعمل في إحدى المؤسسات التعليمية العالية وسرعان ما تعارف فيها على شخصيات عراقية في مواقع حياتية مختلفة.

الفتاة الفاتنة لميعة العسكري التي تحمل شهادة الماجستير أيضاً في اللغة الإنكليزية كانت أبرز الحبيبات إلى قلبه، فاحتلته وغرست في أعماقه لواء الوفاء والتضحية حتى الأبد، وكانت سبباً مباشراً لنبوغه الثقافي فيما بعد.

تحدث جبرا في «شارع الأميرات» ـ الذي سمي بذلك لأن أميرات العائلة الملكية في العراق كن يتمشين فيه ـ عن خطبته لمعشوقته حيث اتخذ قرار السفر إلى جامعة هارفرد بصحبتها، وذلك بعد أن تم الزواج في اليوم التاسع من شهر أغسطس/آب في عام 1952 بعد أن أشهر إسلامه.

ومثلما كان جبرا متميزاً في حياته، فقد كان متميزاً أيضاً في زواجه، حيث خلا من إقامة أي طقوس احتفالية باتفاق بين العروسين، ولم يتناول أحد من الأدباء ذكر أبعاد أو أسباب ذلك، ربما لأنهم نظروا للأمر باعتباره تصرفاً ثانوياً، إلا أنهم ـ أي الأدباء ـ أجمعوا على أن زواج جبرا من لميعة شكّل انعطافاً إيجابياً حاداً في مسار حياة الشاب التلحمي العصامي.

بالنسبة للإنجاب فيبدو أنه كان متردداً فيه لارتباطه المباشر بمحنة الضياع التي حلت بوطنه، وويلات الشتات التي تعرض لها شعبه، الأمر الذي دفعه للقول: «يحق لنا أخيراً أن نفكر بإنجاب الأولاد، مطمئنين ولو إلى زمن إلى أن الأيام لن تغدر بنا أو بهم، وإن يكن ذلك أمراً أقرب إلى الوهم» (شارع الأميرات).

وتتوج زواجهما بإنجاب سدير وياسر، وفي عام 1954 عادا إلى بغداد قادمين من الولايات المتحدة الأميركية بعد أن حصل جبرا على زمالة بحث Fellow Ship في النقد الأدبي من جامعة هارفرد.

وفور عودته التحق بشركة نفط العراق متقلداً منصباً إدارياً، وظل محاضراً للأدب الإنكليزي في كلية الآداب بجامعة بغداد حتى عام 1964.

وكان جبرا قد حصل على الجنسية العراقية في وقت سابق، مما أتاح له حرية الانتقال بحرية في بلاد العالم، وكذلك مشروعية شغل بعض المناصب الثقافية التي لا يشغلها إلا العراقيون مثل رئاسته «رابطة نقاد الأدب في العراق»، ورئاسة تحرير مجلة «فنون عربية»، كما ترأس لجنة التحكيم في مهرجانات الأفلام العراقية. وهو الذي أسس «جماعة بغداد للفن الحديث» بالاشتراك مع الفنان العراقي المعروف جواد سليم.

وبرغم وفرة الأدباء والفنانين وأساتذة الجامعات من مختلف الجنسيات الذين وفدوا إلى العراق يومئذ إلا أن دور جبرا كان مختلفاً عن أدوارهم جميعاً، فإضافة إلى القيمة النوعية لإبداعاته ومساهماته فقد أضحى جزءاً مهماً من نسيج الحياة الثقافية العراقية، وقام بدور فاعل ومؤثر في صياغة حركة التجديد في الفكر العربي المعاصر، وبخاصة في الشعر، وساهم أيضاً في بلورة الفن التشكيلي في العراق، ويعتبر أول ناقد رافق تطور هذا الفن منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي، وألف منه كتباً بالعربية والإنكليزية.

وهج الكلمة الروائية

قبيل بلوغه الخامسة عشرة من العمر تشكلت ملامح عبقرية جبرا الإبداعية، وكانت مدينة القدس مصدر فأل حسن له، انثال منها أول الينابيع، ومنذ البداية كانت الكتابة تشكل وسيلة ملحة في قرارة نفسه، وعندما ينصاع لتلك الوسيلة إنما يدفع عن شخصيته المزيد من الأوجاع والآلام التي كان يعانيها. وجبرا يرى أن الكتابة وسيلته لإنقاذ نفسه من أتون الهموم الحياتية، ولولاها لكانت الحياة جحيماً لا يطاق، حسب تعبيره، مكملاً حديثه مع ماجد السامرائي المعروف بأنه أهم باحث لإبداعات جبرا: وإذ ينقذ المرء من هذا الجحيم فإنه يحقق معجزة في جعل هذه الوسيلة تمتد سلّم إنقاذ للآخرين أيضاً، وتعيد تقييم العلاقة مع العالم في اتجاه ما يؤكد على الحياة وليس على الموت، وكانت هذه الفكرة حصيلة أحاسيس مهمة أخذت تتضح مع الزمن عن طريق الكلمة نفسها، ويتابع جبرا إفصاحه الجريء قائلاً: إن أقصى ما كنت أريده أن يبقى للكلمة وهجها بعد أن تكون قد أنقذت نفسي من غمرتها، وأن تكون قد وقعت في سياق العلاقة مع العالم نفسه.

ولكن ما الغاية التي كان يطمح لتحقيقها من الكتابة؟ يقول: لا أحسب أني كنت في يوم من الأيام أحدد لنفسي غاية تتحقق مما أكتب، اللهم سوى الشهرة التي كنت في حداثتي أتصور أنها شيء مهم، وقد صححت لنفسي هذا التصور، وتخليت عن هذا الوهم منذ زمن بعيد.

كان هذا في بداية المشوار، أما النتيجة النهائية التي حققها جبرا فقد لخصها الزميل فخري صالح بقوله: إن الرواية الفلسطينية تستند إلى ثلاثة أسماء أساسية استطاعت أن تبني معماراً روائياً متماسكاً حول سؤال الوجود والهوية: غسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا، وإميل حبيبي»[4].

لقد حققت نصوص جبرا الإبداعية نقلة نوعية مهمة على مستوى نمط الكتابة الروائية المعروفة، إذ تخلصت من النظام السردي الممل، وفتحت مصراعي الباب لترتاد الرواية العربية مجالات سردية جديدة من خلال البناء المحكم لهذه الروايات، وفي رأيه أن الرواية هي الوعاء المناسب الذي يحوي كافة الأشكال التعبيرية الأخرى بما فيها الشعر، وأن حياة العربي بحاجة إلى شكل إبداعي لغوي لعل الشعر قاصر عنه، وأنه ـ شخصياً ـ كتب الرواية لتستوعب طاقته الشعرية.

كان هم جبرا في بداية انطلاقته كتابة القصيدة، لكنه بدأ بصورة مفاجئة في كتابة الرواية أيضاً، فكتب روايتين قصيرتين إحداهما بعنوان «صراخ في ليل طويل» عام 1946 (طبعت عام 1955)، ثم بدأ يكتب قصصاً قصيرة، ولكن ذهنه كان يعمل روائياً، وفي سنة 1953 شرع في كتابة رواية «صيادون في شارع ضيق»، بعدها انقطع إلى الرسم والنقد لبضع سنوات.

لكنه لم يمكث بعيداً، فشدته مغناطيسية الرواية مرة أخرى، فأصدر «السفينة»، ثم تجلى إبداعه الأكثر

في رواية «البحث عن وليد مسعود» حرص أن يكون البطل فلسطينياً مثقفاً

سطوعاً في روايته الشهيرة «البحث عن وليد مسعود» (1978) ثم تبعها بـ «الغرف الأخرى» وبعدئذ أصدر «يوميات سراب عثمان».

وهناك رواية تحمل عنوان «عالم بلا خرائط»، وهي التي اشترك في كتابتها مع الروائي الكبير عبدالرحمن منيف، وهي سابقة نادرة الحدوث سواء على مستوى الأدب العربي أو العالمي، لأنها «تدل على توحد في الرؤية وعلى قدر كبير من نكران الذات».

والمتأمل لعالم جبرا الروائي يرى فيه نموذجاً لما يجب أن تكون عليه شخصية الروائي العربي المعاصر، ذلك لأن الكتابة الروائية مسؤولية عظيمة وخطيرة في وقت واحد، فهي تستوجب توفير الثقافة الموسوعية والشمولية التي تستوجب استيعاب مجريات الأمور بشكل عام.

فالمجتمع العربي في نظر جبرا لم يكن يوماً في تاريخه الطويل أكثر انزياحاً وأشد تغيراً مما كان عليه في السنين الخمسين الأخيرة، والروائي الذي ليس على مثل هذا الوعي لن يقدم لنا ما يستحق القراءة، فضلاً عن ضرورة كونه دائماً متميزاً عن كاتب آخر وسط أساليب وكتابات تنهال علينا من كل جانب.

والرواية حسب تصور جبرا لها تضم إليها كل الفنون اللفظية والتشكيلية والسمعية والبصرية، ذلك لأنها من حيث الجوهر والوظيفة من اختيار وتقصي في الوضع الإنساني الغني المعقد. وفهم جبرا تلك الطبيعة في الرواية فهماً عميقاً، لذلك سيبقى علامة مضيئة في عالم الرواية العربية.

أما لغته الروائية فتعتبر سراً من أسرار إبداعه، فهي لغة تمتاز بأناقتها ونقائها، وتجمع بين البساطة التلقائية والجمال الرهيف في وقت واحد، تأمل معي قوله في أحد مقاطع «السفينة»:

«البحر جسر الخلاص، البحر الطري الناعم الأشيب العطوف، وقد عاد البحر اليوم إلى العنفوان، لطم موجه إيقاع عنيف للعصارة التي تقذف في وجه السماء بالزهر، والشفاه العريضة، والأذرع الممتدة كالشراك اللذيذة، البحر خلاص جديد، إلى الغرب، إلى جزر العقيق، إلى الشاطئ الذي انبثقت عليه ربة الحب من زبد البحر ونفث النسيم..».

اتخذ أسلوباً شعرياً جديداً تخطى فيه قيود الشعر التقليدي

جبهة الشعر

برغم أن أعمال جبرا الروائية والقصصية والمترجمة تفوقت بشكل لافت على أعماله الشعرية، إلا أن هذا الأمر لا يشكل انتقاصاً من قدره، فقد اتخذ له أسلوباً شعرياً جديداً تخطى فيه قيود الشعر التقليدي، وحقق فتحاً في جبهة الشعر النثري أضحى فيما بعد بوصلة يهتدي بها الشعراء اللاحقون.

يقول في مقدمة ديوانه «تموز في المدينة» منوها بجرأته وإصراره على بلوغ هدفه: «إن إدخال نغمة جديدة على فن قديم يعتمد على الموسيقى التقليدية أمر يحتاج إلى جرأة كبيرة، له القدرة والبراعة، وأنا قد لا أملك الأخيرتين، ولكنني مندفع في سبيلي مهما اعترض عليه الناس».

هذا وأصدر جبرا ثلاث مجموعات شعرية هي: «تموز في المدينة» و«المدار المغلق» و«لوعة الشمس»، وجمعها في ديوان يشتمل على أعماله الكاملة أصدره عام 1990، بعد أن أضاف إليه مجموعة أخرى بعنوان «سبع قصائد».

الترجمة والهاجس التنويري

نظراً لتمكنه العميق من اللغتين العربية والإنكليزية فقد نجح جبرا نجاحاً باهراً في ترجمة العديد من الكتب القيمة لشوامخ الكتّاب الغربيين، أمثال وليم شكسبير، وليم فوكنر، صموئيل بيكيت، أندريه مالرو، أوسكار وايلد، جيمس فريزر، وغيرهم.

وتعتبر ترجماته لشكسبير من أهم الترجمات العربية لهذا الكاتب العظيم، وكذلك ترجمته الرائعة لرواية «الصخب

والعنف» للروائي الأميركي فوكنر، وقد ساعد التقديم القيم الذي قدمه جبرا قراء العربية على فهمها وتذوقها، كما ترجم الكثير من الكتب الغربية المتعلقة بالتاريخ الشرقي مثل «ما قبل الفلسفة»، و«الرمز الأسطورة» وغيرهما.

وكان لهذه الترجمات أثر واضح في تحديث الفكر الإبداعي العربي بمفهومه الواسع، ولابد من الإشارة هنا إلى ترجمته الأنيقة لكتاب «الغصن الذهبي» لجيمس فريزر التي استلهم منها الشعراء العرب الحداثيون جوانب عديدة من عطاءاتهم المميزة.

ترجمات جبرا الثرية تذكرنا بترجمات رصيفه المبدع الفلسطيني عادل زعيتر (1897 ـ 1957) الذي قدم للمكتبة العربية ثمانية وثلاثين مجلداً قام بترجمتها من الفرنسية إلى العربية، ويعود معظمها لعباقرة الفكر أمثال: جوستاف لوبون، فولتير، مونتيسكيو، روسو، وغيرهم.

إن الهاجس التنويري هو الدافع الأساس لهذين المترجمين الخالدين، ولغيرهما من عمالقة الترجمة في الوطن العربي.

وبشكل عام يمكننا الإقرار بأن المبدع الشمولي جبرا إبراهيم جبرا ساهم إسهاماً مشهوداً في مسار الثقافة العربية المعاصرة، فولج ست بوابات ثقافية واسعة، ومهر اسمه وتوقيعه في دفاترها، بدأ شاعراً وانتهى روائياً، ولكنه على امتداد تدفقه وعطائه لم ينقطع عنها، ظل دائم الحضور فيها والانتماء إليها، ولم يكن الشاعر فيه ليعوق الروائي، ولا القاص فيه المترجم، ولا الرسام فيه الناقد، كان كل هؤلاء جميعاً.

ولما أشار بعض أصدقائه لهذا الفيض المتنوع من الأعمال الأدبية، وفي أيها يجد نفسه بصورة أعمق أجابهم بمنطقه وهدوئه: ليس ثمة من مفاضلة بالنسبة إليّ، إني أجد نفسي فيها جميعاً، أو إنني أجد أجزاء من نفسي في كل منها، أنا بالطبع لا أتوقف لأرى في أي المجالات أجد نفسي أكثر، ولو فعلت لكنت كمن يريد أن يفرض الحظر على حركة بعض الأعضاء، أعضاء الجسد الذهني، والذي أعيش له كاملاً، والرسم أيضاً بعض من هذا الجسد، وحتى الترجمة فأنا في الأغلب لا أترجم إلا ما أحس أن له صلة ما بلوعاتي المزمنة.. (أقنعة الحقيقة وأقنعة الخيال).

النقد والفن

أما بالنسبة للنقد فيعتبر جبرا أحد أهم النقاد المتابعين الذين أثبتوا جدارتهم في الساحة الثقافية العربية، ونقده لم يكن مقتصراً على الساحة الأدبية، بل ساهم بنقده الموضوعي في المجالات الفنية، وكذلك في تطوير الفن في العراق من خلال إسهامه في تأسيس «جماعة بغداد للفن الحديث»، فأصدر عدة كتب عنه بالعربية والإنكليزية من أشهرها «جواد سليم ونصب الحرية».

ويرى صديقه الشاعر أحمد دحبور أن جبرا كان فناناً ومنظّراً محكماً، وإذا كانت رسومه الشخصية تدور في الفلك الواقعي التعبيري، فإن دعوته النظرية كانت تشمل مختلف المدارس وكان انحيازه إلى الجديد لا حدود له.

فلسطين في أعمال جبرا

يعترف جبرا بصورة مباشرة أنه لم يكتب عن فلسطين بالقدر الذي يتمنى، ليس كمجرد حنين إلى الماضي، بل بلورة لهذا الماضي حتى يبقى دائماً موجوداً مشعاً لوصل الحاضر والمستقبل بالينبوع[5].

والمتتبع لأعمال جبرا يجد أن فلسطين مرت مروراً سريعاً في بعض أعماله وبشكل خاص في الرواية والشعر، ففي رواية «صراخ في ليل طويل» نجد الشخوص الذين أدمى الماضي قلوبهم يركزون في تطلعاتهم إلى المستقبل، والمستقبل بالنسبة لهم هو فلسطين. وفي رواية «السفينة» نجد فلسطين حاضرة في شخصية البطل «وديع عساف» ممثلة في كافة مواقفه وتحركاته، وتتحكم فيما يصدر عنه من تصرفات.

واللافت أن الماضي في «السفينة» يشكل حملاً ثقيلاً على كافة شخصيات الرواية وليست مقصورة على وديع عساف فحسب، ولكنهم جميعاً ظماؤون للنور المشع في نهاية النفق، المستقبل وذلك هروباً من مآسي الماضي الممض.

أما في رواية «البحث عن وليد مسعود» ـ وهي الأكثر شهرة في أعمال جبرا ـ فبطلها وليد مسعود يهمل مباهج الحياة وزخارفها، ويقذفها وراء ظهره، ويلتحق بالثورة الفلسطينية المسلحة باعتبارها المصباح المنير الهادي إلى طريق المستقبل (لاحظ الاختيار الدقيق والموفق لاسم وليد مسعود لفظاً ومعنى)، وعن عمد وقصد حرص جبرا أن يكون بطله فلسطينياً مثقفاً.

«وليد مسعود هو خلاصة العذاب الذي عاشه الفلسطيني ـ وبالذات الفلسطيني المثقف ـ وهو أيضاً خلاصة وعي الفلسطيني الذي ركب «السفينة» طويلاً وتجول معها وبها بحار العالم، رأى مدنه الساحلية، وتعرف على أجمل النساء، ثم عاد وعلى كتفيه همه الأول العميق واغترابه الأعمق» [6].

ولكن أين ذهب؟ وأين اختفى وليد مسعود؟. هذان سؤالان طالما أصابا أصدقاء وليد بالحيرة والذهول، كل منهم اعتمد على مخزون ذاكرته عن علاقته بوليد قبل أن يختفي، وفي المقابل نجد أن وليد يغرق في ماضيه المضمخ بعشق الوطن، وهو الماضي الذي يختلف تماماً عن ماضي أصدقائه، الذين تصوروا أنهم يفهمون كل التفاصيل عنه، وثبت بعدئذ أنهم يتمتعون بقسط وافر من الجهل به!

كان يوحي لمن يفهم نفسية هذا المنفى أن هروبه سيكون نحو الوطن الذي سبقه إليه ابنه مروان «لو أن المحيطين بوليد مسعود جمعوا الجزئيات التي عرفوها عن حياته لأدركوا أن هذه الشخصية لن تهرب إلا نحو الوطن، وليد مسعود يحمل الكثير من ملامح وديع عساف في «السفينة» إلا أنه يتطور فكراً وممارسة مع التطورات الطارئة على بنية المجتمع الفلسطيني وبالذات بعد نكسة 1967، منسجماً في ذلك مع ماضيه في فلسطين قبل نكبة 1948»[7].

الرواية هي الوعاء الذي يحوي كافة الأشكال التعبيرية الأخرى بما فيها الشعر

أما في جبهة الشعر ففلسطين وقّعت حضورها في بعض قصائده التي لم تغب عنها روح جبرا، فهي تطل علينا من خلال «مارجيروم في بيت لحم» و«ما بعد الجلجلة»، و«القدس.. مدينة المعراج»، و«قبية»، و«دير ياسين» وفي بوادي النفي (عن اللاجئين)، و«لعينيك أغني».. إلخ.
يقول في مجموعة «لوعة الشمس» بشجى عارم:

جيل المأساة نحن، وعن وعي نقبلها
جيل عاصرت أرضه كل دورات الزمن
فوعى العصور كلها،
عرف الزمان مضاعفاً
ضارباً عمقاً وعلواً
عاشه عاشقاً متمرداً
ويعيشه كل يوم صارخاً متحدياً
ولكن لن نعيش إلا زمانها
زمان مدينة الطور والزيتون
مدينة المعراج والجلجلة
هي وحدها في الأرض لنا أرض
وهي وحدها في السماء لنا سماء

لقد ساهم جبرا إبراهيم جبرا بصورة فاعلة في تحريك المياه شبه الراكدة في بحيرة الإبداع العربي، وتتلمذ عليه الكثيرون من أبناء الأمة العربية والإسلامية، بل إن الشاعر الكبير بدر شاكر السياب طلب رضاه عن إنتاجه الشعري، وحسبنا أن نورد النص الحرفي للإهداء الذي صاغه السياب في أحد دواوينه بقوله لـ«أستاذه»:
إلى أخي وأستاذي جبرا إبراهيم جبرا، الذي كان لتوجيهه وتشجيعه أكبر الأثر في هذا النتاج الشعري المتواضع، عله يرضى، ولو بعض الرضا عن إنتاج أخيه المخلص بدر شاكر السياب في 1963/3/5، وهذا التصريح يتسم بالأهمية عندما يصدر من شاعر فحل بحجم السياب، يوم كان في أوج شهرته وقمة مجده وقبل عام واحد فقط من وفاته في الكويت عام 1964.
واعترافاً بفضله، وتقديراً لعطائه، حاز جبرا العديد من الجوائز والأوسمة، نذكر منها: جائزة «أوروبا» للثقافة التي منحه إياها «منتدى الآداب العالمية» في روما عام 1983، وجائزة الآداب والفنون من «مؤسسة الكويت للتقدم العلمي» عام 1987، وجائزة صدام للآداب عام 1988، وكذلك وسام القدس للثقافة والفنون والآداب عام 1990.
وأخيراً.. فقد اقتضت الإرادة الإلهية للقلب الرهيف أن يتوقف عن خفقانه، ولليراع السيال أن تجف قطراته، فتوقف عطاء أبي سدير في الثاني عشر من شهر ديسمبر/كانون أول من عام 1994 بعد مرور عام واحد فقط على رحيل زوجته ورفيقة حياته لميعة العسكري، ووري جثمانه إلى جوارها في أحد مدافن بغداد، العاصمة العربية العريقة التي احتضنته حياً و.... ولن أقول «ميتاً» لأن المبدعين لا يموتون.. بل هم الخالدون أبداً في فم التاريخ.

أزاهير الوفاء

• جبرا.. واحد من المؤسسين لحركة الشعر العربي المعاصر، وواحد من الذين تعلم منهم أبناء جيلي معنى المعاصرة والحداثة في الشعر، كان جبرا طرازاً فريداً من المبدعين الذين تتعدد مواهبهم وتتنوع اهتماماتهم.
ولا شك في أن التعدد في أنشطته، وتنوع مجال كتاباته هو أول ما يلفت انتباه من يقترب منه، فإلى جانب التوقد اللاهب في الإبداع الروائي، والحماسة المتقدة التي لا تفتر في مجال الشعر، هناك الحركة القلقة التي تنتقل من مجال إلى مجال، ومن نقد أدبي إلى نقد فني، ومن الغرام بتاريخ الفنون والعمارة إلى الغرام بالترجمة، ومن تشجيع الناشئين إلى منازلة العمالقة واقتناص أسرار لغاتهم المراوغة.. إنه التعدد الذي يبدو صاحبه نهماً في تعرف كل مجالات الإبداع الإنساني وتقديمها، شرهاً في امتلاك كل مفاتيح الكتابة وأدواتها وأساليبها والتعريف بها، وهو التعدد الذي يميز النماذج الفريدة من مبدعي عالمنا الحديث، أولئك الذين جمعوا إلى الكتابة الوعي بها، وإلى الإبداع لغته الشارحة.
جابر عصفور

• كان جبرا من أهم المساهمين في صياغة الثقافة العربية الحديثة، وبهويتها وملامحها القلقة والمندفعة لفك أسرها وقيودها صوب أفق يتوسل الرحابة والحرية والإبداع.
كان جبرا حارث أرض الثقافة ورائدها بجانب أقرانه في صمت وإخلاص وتواضع نادراً ما نجده في دنيا العرب المعاصرة.
سيف الرحبي

• لو فرضت عليّ الإقامة في جزيرة صحراوية مسموحاً لي بعشرة كتب فقط لجعلت أحد هذه الكتب «تموز في المدينة».
توفيق صايغ

• يُعد النقد الأدبي - وهو حقل معرفي يستعصي عادة على الترجمة - محظوظاً حين يتصدى له كاتب مبدع ذواقة مثل جبرا، وقد ترجم جبرا دراسات تطبيقية مهمة حول الأدب الأميركي، وحول أدباء غربيين كبار، كما ترجم دراسات نقدية ذات طابع نظري وأحياناً تطبيقي لنقاد إنكليز وأميركيين معاصرين، ويُعد جبرا من القلائل الذين استطاعوا التوفيق بين المناخ النفسي للإبداع الخلاق والمناخ الفكري للبحث والدراسة.
د.حسام الخطيب

ترجم كتباً قيمة لشوامخ الكتّاب أمثال: شكسبير، فوكنر، بيكيت .....

• إن دراسة أدب جبرا الروائي تثبت أن هذا الكاتب، كان يعي ما يكتب، فهو يتحرك ضمن مسار واضح محدد، إذ إن جزئيات الموضوع الروائي عنده تترابط من عمل إلى آخر، معبرة عن قناعاته التي تؤطرها محاور رئيسية رأيناها في «فلسطين والمستقبل والتغيير».
إن ما يعطي جبرا دوراً رائداً هو أنه يعبر عن هذا الموضوع بأسلوب فني يعي التقنية الروائية الحديثة، مستفيداً من كافة التقنيات الروائية العالمية المعاصرة، مما يجعله علامة مهمة من علامات نضج التطور الروائي العربي.

د.أحمد أبو مطر

• أعترف أنني لم أعان يوماً من شعور الغيرة من أحد بقدر ما عانيت من الراحل العزيز جبرا إبراهيم جبرا، كان دائماً يسبقني بخطوة أو خطوتين في كثير من المشاريع التي فكرت فيها، وفي مقدمتها ترجماته لشكسبير، إنه جسر بين حضارتين، كم نحتاج إلى جسور مثله، وإن بوحه الفني الرفيع يبقيه أستاذاً للأجيال القادمة وإحدى العلامات الخالدة في أدبنا العربي.

د.رياض عصمت

• حين أتذكر الآن أن جبرا كان صديقي يرتج كل جزء في بدني، ففي كل لحظات الوفاق أو الاختلاف بيننا كان الرجل معلماً من طراز خاص، لم تكن القسوة من طبعه فكان لا يكتب إلا عما يحب، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الظن بأنه يجامل على حساب الحقيقة في حين كان شعاره في النقد: كن منصفاً.
كان جبرا على قدر هائل من التواضع، لكنه تواضع ممزوج بالرفعة، إنه تواضع العلماء الذين يجدون في المعرفة جسراً يؤدي بهم إلى الناس العاديين حيث يكون بإمكان رسالاتهم أن تصل من غير أن يلوثها هواء العادي والمألوف.
لقد جرّ جبرا خيط حريته وراءه من القدس إلى بغداد إلى بيروت، ولقد فعل هذا الخيط في حياتنا الثقافية ما يمكن أن يفعله مصباح مضيء وسط عتمة دامسة، لقد التم المبدعون ممن كانت مواهبهم في انتظار المعجزة حوله مثلما تفعل الفراشات، فكان أن وجدت نوايا التجديد في الشعر والرسم من يقودها في الاتجاه الصحيح.
ومثلما شهدت له الخمسينيات أنه قد أحدث تحولاً كبيراً في نظرة الفنانين إلى الحياة ونظرة المجتمع إلى الفن، فإن الستينيات تشهد له أنه رعى الانقلاب الرؤيوي الكبير الذي عاشته تلك السنوات.

فاروق يوسف

• إن البحث في «معنى التجديد» بما له من واقع وما يحكمه من شروط، هو المدخل الصحيح فيما أرى لقراءة جبرا سواء في نقده- بما للنقد عنده من أسس أو أرسى من مبادئ التعامل مع الإبداع الجديد- أو في أعماله الإبداعية التي كان أن تحرك بها في مستوى الإنجاز، حركة الفعل الرائد في مجاله.
ونجد جبرا حاسماً وواضحاً في موقفه التجديدي هذا وما يتقرر بشأنه فهو لا يرد «معنى التجديد» أو يرجع به إلى «تيارات سالفة» يلجأ إليها البعض لتقرير حقيقته، وإنما يقرر حقيقة هذا الإبداع الجديد بما له «فيه ومنه» من موقف، ورؤية جديدة ولغة تضيف ولا تستعير.

ماجد السامرائي

• والآن، وبعد مرور ذلك الزمن أستطيع القول إن سر تفتح جبرا الدائم وحيويته، وهذه الروح المتوثبة التي ظلت تفيض عن حدود جسده، يرجع سرها إلى ذلك الغنى في داخله، الغنى بكل جمال وجميل، بحيث يمكنني القول إن جبرا كان مثالاً غير عادي على أن انفتاح المرء على الفنون جزء أساسي من صبا روحه الدائم.

الشاعر إبراهيم نصر الله

• تعود علاقتي كناشر بالمبدع الراحل جبرا إبراهيم جبرا إلى أواسط السبعينيات، إذ إن شقيقي المرحوم الدكتور عبدالوهاب الكيالي هو الذي أرسى دعائم العلاقة معه عندما قام بنشر كتبه المؤلفة والمترجمة نثراً وشعراً ورواية، وأكملت أنا المسيرة بعد وفاته في عام 1981.
وكان جبرا - وهذه حقيقة يعرفها أصدقاؤه - يبدي إعجابه دوماً وتقديره للمعاملة التي يلقاها من الدار كمؤلف وكمبدع. كذلك كان يبدي ارتياحه لحسن إخراج كتبه والاعتناء بمظهرها العام، ولا عجب في ذلك فهو إلى جانب كونه كاتباً فنان تشكيلي ذو ذوق رفيع، وقمنا بنشر نحو ثلاثين كتاباً من كتبه.

ماهر الكيالي

• لجبرا كلام على الجمال المنقد، لا أعتقد أنه التقى هذا الجمال كثيراً، ولكن أعتقد أنه بقي هاجساً فيه حتى النهاية، والغريب والمؤلم أن ما يظهر غالباً من وجه هذا المبشر الكلاسيكي بالمعرفة الحديثة هو الجامعي العلّامة أو الشاعر البحّاثة أو الناقد الرائد المعلم أو القاص الناضح في تجارب الاغتراب، وقلما يذكر له ذلك الوجه الملهوف: وجه الباحث وسط كل شيء عن الجمال المنقد.
بحث يخفي قلقه، بحث منطلق بحماسة الربيع، فنحن على ما يدهشه انحناءة آدم الأول على أول حواء.

أنسي الحاج

• لقد اكتشف جبرا إبراهيم جبرا أن العربي معرّض لكل أنواع الضغوط والمنع والقمع حتى أصبح مسحوقاً ومكبلاً بواقعه، لذلك يسعى للتحرر من واقعه من خلال الفانتازيا، لقد نمت لمخيلته جوانح جبارة، وقد أطلق لها العنان دون أن يتجاوز مكانه.
ترى هل تلك هي مأساة العربي المعاصر؟

حليم بركات

ساهم جبرا بنقده الموضوعي في المجالات الفنية، وفي تأسيس «جماعة بغداد للفن الحديث»

العمل الفني: ضياء العزاوي - العراق

الهوامش

1 - جبرا إبراهيم جبرا، الأدباء والكتاب الفلسطينيون، أحمد دحبور.
2 - السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبدالفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002.
3 - المصدر السابق.
4 - جريدة الحياة 2008/5/13.
5 - مجلة قضايا عربية، العدد الثالث، يونيو/حزيران 1974.
6 - راسم المدهون، الحياة، 3 يناير 1995م.
7 - د. أحمد أبومطر - مجلة الباحث - يوليو/تموز 1982.